مجلة المسلم

العدد : ٢١٠ الموافق في صفر ١٤٢٠ هجري ٦ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : كيف تعامل المجتمع الغربي مع الهجرة ! –١–	بقلم : أ. محمد العروسي

بالأمس كان مهاجراً وأصبح اليوم مستقراً ومواطناً ، رحلة شاقة ومثيرة يقطعها المسلم المقيم في الغرب ، سفر استرعى اهتمام الجميع إلى درجة أنه أصبح أحد محاور الحملات الانتخابية لبعض الأحزاب السياسية الغربية ، لذلك ولغيره رأيت من المناسب أن أعرض في هذا المقال إلى تطور موقف المجتمع الغربي تجاه الهجرة وهذا الاستقرار .

١- أطروحات الاندماج بين القبول والرفض

لا تعتبر هجرة المسلمين الحديثة إلى الغرب أول مرة يحتك فيها المجتمع الأوروبية بالإسلام والمسلمين ، إلا أن حظ الأجيال الأوروبية المعاصرة من معرفة الإسلام كان – ولا يزال – نظرياً ، من خلال تربية اجتماعية وسياسية تعليمية غير منصفة للإسلام في كثير من الأحيان ، وبرز ذلك مثلاً في المراجع التاريخية ومقررات التاريخ في المدارس ، ومن خلال كتابات مشوهة لحقيقة الإسلام فيما يتداوله الطفل أو المواطن بشكل عام ،كالموسوعات أو أغلب الكتابات التي تناولت الإسلام والمسلمين بالحديث ، وقُدّم الإسلام على أنه الدين الذي حارب أوروبا وزلزل قلاعها ، فلم يقدم لها أي خير يذكر ، بل سرق أرضها وخيراتها ، هكذا صور الإسلام للجيل الأوروبي المعاصر على أنه دين التخلف والتزمت والإرهاب والهمجية ، وصور المسلم بشكل عام على أنه إنسان من درجة ثانية ينتسب إلى عصور الظلام والانغلاق الفكري ، وحتى كتابات وآراء المنصفين وعقلاء المفكرين الأوروبيين – والذين يستحقون الاحترام والتقدير والشكر والتنويه - طمسها الكثير من الخطط السياسية المبنية على الكره للإسلام ، فمنعت هذه الآراء المنصفة من الوصول إلى دائرة التأثير في الرأي العام الشعبي وفي ثقافته وفي القرار السياسي ، ولم تصل كذلك إلى مجالات التوجيه الاجتماعي

وإجمالاً يمكن القول بأنه لم تتهيأ للمجتمع المضيف دواعي الاستقبال الحسن والقيام بواجب الضيافة ، بل طرح نفسه كمعلم بارع ومتفوق لا يخطئ ، ومنبع للخير لا ينضب ، فمن أراد السلامة والعيش الكريم بين أظهره فعليه أن يندمج فيه ويتبنى فكره ونظرته إلى الأمور ، بل عليه أن يذوب فيه ويتحلل من هويته الأصيلة. سادت هذه النظرة المجتمع الغربي وتربت عليها ناشئته ، وللأسف لم يبرز

في صفوف المسلمين المقيمين في الغرب من يتصدى لهذه المغالطات بالقدر الكافي وفي وقت مبكر ، ومن يقف لجانب الآراء المنصفة ويمد معها الجسور فيآزرها ، ولم تتوفر بعد الإمكانات المادية والبشرية والعلمية للجالية المسلمة لتحسين هذه الصورة ، ولكن بعض بوادر الخير قد لاحت في الأفق ، ولا بد للجالية المسلمة أن تعمل على تقديم صورة مشرفة وحقيقية للإسلام ، لأن بعض المسلمين ومع الأسف خدم من روج لهذا العداء ومن عمل على ترسيخه في العقول ، بسبب سلوكه المنافي للإسلام ، فحسب ذلك على الإسلام ظلماً .

وبهذا نجمل الموقف الغربي من الإسلام والجالية المسلمة حتى منتصف الثمانينيات في ثلاث مواقف مختلفة :

فئة واسعة ، وهي القاعدة الشعبية العامة ، لم تعرف إلا إسلاماً مشوهاً منذ صباها ولم تجدد معلوماتها ولم تصححها من خلال مجهود فردي مستمر ، بل كانت فريسة وسائل الإعلام التي يقوم عليها من يعادي الإسلام أو من يجهله ، وفي كلتا الحالتين كان موقف هذه الأجهزة الإعلامية من الإسلام سلبياً. وبما أن هذه الفئة الشعبية هي رصيد الأحزاب السياسية وسر نجاحها أو فشلها في الانتخابات ، فقد سعت هذه الأخيرة لمغازلتها ، ولم تتودد إلى الإسلام والمهاجرين المسلمين محافظة على ثقة الناخب وصوته الثمين.

فئة ثانية أكثر إنصافا ، مكونة بشكل عام من مجموعة من المفكرين ، قامت ببحوث علمية مجردة تعرفت فيها على حقيقة الإسلام وأوضاع المسلم المهاجر وأوضاع بلاده الأصلية ، وكان لها اطلاع أوسع من الفئة الأولى ، وتمثلت في سلوكها حقيقة المبادئ الإنسانية العادلة ونادت بها ، إلا أن تأثيرها كان ضعيفاً جدًا بسبب اعتراض بعض التنظيمات الدينية والسياسية على أفكارها ، وحجبت أعمالها عن الشارع كما يقال .

فئة ثالثة تتكون من المفكرين المنضوين تحت لواء تنظيمات سياسية واجتماعية ودينية ، وهي تضمر عداء للإسلام وترفض أن يكون له أي وجود في أوروبا ، ووظفت لهذا الأمر كثيراً من الطاقات ، وكان لها تأثير واضح في القرار السياسي في الفترة الأخيرة. وإلى جانب عملها الفكري الأكاديمي ، فإنها قامت بنشاط سياسي إعلامي اخترق صفوف الرأي العام وأثر في تركيبته الفكرية ، لأنه كان مهيأ لرفض وجود الإسلام كما سلف الذكر ، فكانت – مثلاً - تستغل بعض الأحداث التي تقع في العالم الإسلامي وتوظفها لتستدل على همجية الإسلام وعنفه ، كما أنها كانت تنتهز الفرص لتكريس

تشويه الإسلام بقلب الحقائق أو تقديمها خارجة عن إطارها الاجتماعي والتاريخي كقضية المرأة،

وتنقسم المنظمات السياسية التي وقفت وراء هذا الطرح إلى قسمين: أحزاب سياسية خالصة ، وأحزاب سياسية دينية ، فالأولى ، وهي التي توصف بالعلمانية، لها موقف سلبي وعدائي من الدين بشكل عام ومن الإسلام بشكل خاص ، والثانية كانت تناضل لبقاء مظاهر التدين في أوروبا ، ولكنها في الحقيقة نشطت في احتكار ذلك لنفسها ولمعتقدها . أما الأحزاب المتطرفة وخاصة اليمينية منها ، فلقد ظهر منها (مفسرون للقرآن) وعلماء في الشريعة قد فهموا الإسلام أكثر من المسلمين ، ففسروه للرأي العام بطريقتهم وبما يخدم أطروحاتهم.

ويمكن القول إذاً بأن السنوات الأولى للهجرة لم تبن علاقة إيجابية بين المجتمع الأوروبي والجالية المسلمة ، ولم تولد الظروف التي يمكن أن تسمح بالقيام بذلك. ومع ظهور الأجيال الصاعدة من أبناء المسلمين ازدادت هذه العلاقة تأزماً حيث رسخ وأصّل المجتمع الأوروبي الغربي الفكرة الداعية إلى تذويب الهوية الإسلامية وإعادة نسجها بطريقة تحد من خطرها ، وهو ما دعا الجانب الإسلامي إلى المناداة بالتحصين والوقاية ، ولم يتوصل الجانبان لحد الآن إلى حلول وسطية ، بل بنيت حواجز بين الطرفين وتركزت الفكرة القائلة عند المجتمع الأوروبي في قاعدته الشعبية الواسعة بانغلاق الإسلام وتزمته من جهة ، وزادت من تقوقع الجالية المسلمة على نفسها ونما فيها الشعور بعدم المساواة والتعامل العنصري غير العادل.

في هذه الأجواء الفكرية والثقافية والسياسية كان المجتمع الأوروبي مطالباً بدراسة موضوع الأجيال الناشئة من المهاجرين وماذا يجب أن يفعل بهم ، فاتفق أصحاب القرار السياسي على أن هؤلاء ثروة بشرية ضرورية لمجتمع بدأت الشيخوخة تأكله وأصبح مهدداً بالانقراض ، من هذا المنطلق درس هذا الأمر من قبل بعض الجامعات الأوروبية ونشرت الدراسات الأولى في بداية الثمانينات .

ووصلت إلى نتيجة لم تأت بجديد يذكر وهي : لا يمكن للمسلمين أن يندمجوا في المجتمع الأوروبي إلا إذا تخلوا عن دينهم ، أو على الأقل أعادوا صياغته بطريقة تتناسب وقيم الغرب ، وجردوه من لباسه ليلبسوه آخر غريباً عنه ، وبقي الطرفان الأوروبي والإسلامي يراوحان مكانهما ولم يتوصلا إلى تقدم جذري وعميق.

لقد دعا قسم من المجتمع الأوروبي في بداية الأمر إلى دمج المسلمين ، ولكنه حذر من تنامي ظاهرة التدين عندهم ، وبنى ذلك على جهل بالإسلام ودون الرجوع إلى موارده الأصيلة من جهة وعلى حقد

دفين تاريخي قديم ، ومن نفس المنطلق تطرف قسم آخر وتردد حتى في جدوى بقاء المسلمين المهاجرين وخاصة الجيل الأول ، أما الجيل الثاني فقدروا بأن أمره بسيط ولا يشكل خطورة ، ومن الممكن صياغة فكره وعقيدته حسب الحاجة .

قُدمت حلول الاندماج هذه تحت غطاء احترام حقوق الإنسان وحرية الرأي ، إلا أنه في حقيقة الأمر كان هناك اشمئزاز واضح من وجود الإسلام في الغرب ، ولتغييب ذلك صيغت في إطار التعدد الثقافي والفلكلوري ، فإذا قبل الدين كعامل اندماج فلا بد أن يكون في هذا الإطار لا أكثر ، وقدم هذا المخطط من باب التكرم على المهاجرين وأبنائهم ، خاصة وأن إقامتهم الدائمة لم تكن في الحسبان ، وكان استقدامهم في إطار البحث عن حل للأزمة الاقتصادية. فلم يمانع هذا الطرح من أن يدخل في المجتمع عادات اجتماعية جديدة تمس الطعام أو فنون الموسيقى والمسرح وتعليم اللغة العربية أو التركية أو ... ، ولكن الإطار العام الذي يجب أن يتربى فيه الطفل هو الإطار الأوروبي فكراً وعقيدة. وأقول " تكرماً " لأن الممارسات العنصرية في الأيام الأولى كانت تمس اللون والشكل والمظهر واللغة ، وها هو الآن المجتمع يشعرنا بأنه يتسامح ويقبل بتعدد الثقافات والفنون. كان الدين الإسلامي يشكل حاجزا ضد الاندماج ، وكان هدف هذه المخططات في واقع الأمر هو التذويب وليس الدمج. وانطلقت البرامج العملية ورصدت لها أموال طائلة ، وأنشئت مؤسسات ضخمة ، وتم توعية الشعوب بجدوى ذلك ، فتفاعل من تفاعل ، وأنكر من أنكر.

أما في صفوف الجالية المسلمة فردّات الفعل كانت متفاوتة:

استحسن بعض الشباب نوعاً من المؤسسات الترفيهية وانخرطوا فيها لملء أوقات الفراغ والتسلية.

لم يتفاعل أغلب أولياء الأمور مع هذه البرامج التربوية والترفيهية لعدم تطابقها مع أعراف المسلمين.

وحاول القائمون على هذه الأعمال التقرب من الجالية بوسائل شتى ، كتوظيف مربين من بين صفوف الجالية ، أو إدراج أنشطة تذكر بالثقافة الأصلية ، ولكن بشكل عام لم يساهم كل ذلك في التقارب ، فنسبة الجنوح للمخدرات والجريمة بقيت بارزة عند الأجيال الناشئة ، والأحياء المغلقة (قيتو) توسعت ، فكان الاندماج المخطط له ضعيفاً ونتائجه هزيلة. لم تشعر الأسرة المهاجرة المسلمة أنها استفادت من ذلك ، ولم تسر بالنتائج التي حققها أبناؤها في المدارس ، واضطربت تربية النشء اضطراباً كبيراً واهتزت العلاقات الأسرية .

وفي الجانب الآخر لم يقتنع الناخب الأوروبي بنجاح هذه البرامج ، فاضطربت الأحزاب السياسية وشاب مواقفها الغموض ، فشهد المهاجرون في أوروبا فترات متفاوتة الحدة ، فمن وزير اشتراكي إلى وزير ليبرالي ووزير آخر مغازل لليمين المتطرف ، تغيرت القوانين من النقيض إلى النقيض: شروط الحصول على الجنسية ، قواعد استقدام الزوجة للعامل أو الطالب المقيم بمفرده ، شروط التسجيل في الجامعة لمتابعة الدراسة...

وهكذا ، وأمام خيبة أمل الناخب الأوروبي وازدياد قلق الأسرة المسلمة ، وتذبذب الموقف السياسي فشل الاندماج إلى حد كبير

ولعل من أهم أسباب ذلك ما يلي:

- التمسك بهوية الأجداد عند الجيل الأول من المسلمين ولو في المظهر

النمو المؤسساتي الكمي والنوعي عند الجالية المسلمة الذي يثبّت الهوية الإسلامية ، وصار رمزاً وعلماً يرمز إلى وجودها ، وهو تثبيت لوجود الإسلام ودعوة للقبول بذلك ، وقد أزعج ذلك كل من يرسي قواعد الاندماج على أساس الثقافة والتراث فحسب .

إعراب الجيل الثاني و... عن شعوره بالظلم ، لأنه أصبح يشعر بأنه ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء ، إذ كل ما يريده هو العيش في هذه البلاد كفرد له عضوية كاملة في المجتمع مع الإبقاء على الهوية الأصلية ، والإصرار على إدامة الصلة بالمجتمع الإسلامي في كل مكان ، ومثل هذا الشعور أحرج بعض دعاة المساواة ولو شكلاً ، فأسرعوا للتفاعل مع الموضوع والظهور بوجه مشرف يكسب الأنصار.

حركة التجنس التي نمت بشكل سريع ، وهي كذلك رمز لوجود مواطن يرفض صفة مهاجر ، وبالتالي لا يحتاج إلى إدماج.

وهكذا يكون المسلمون قد حسموا هذا التذبذب ، وقبل الجميع بواقع وجود الإسلام على أنه حقيقة لا يمكن تجاهلها. ولا أحب أن يفهم القارئ بأن أصف حرباً كان فيها منتصر ومنهزم ، كلا ، ولكن أصف سوء فهم لحقيقة الإسلام وطبيعته السمحة ، وعدم تفهم لأوضاع جالية عانت من ضغط الهجرة ، وواجهت مشاكل ومعضلات متنوعة ومتلاحقة أحزنتها ، وشعرت بأنها مهددة في صميم عقيدتها وهويتها فدافعت عن نفسها. لم تدخل هذه الجالية فاتحة لأوروبا ولم تفكر في يوم ما في الاستقرار النهائي ولكن فرض عليها ، فهل يجب أن تدفع مقابل ذلك أي ثمن ؟